صراع مع الظلام

من تأليف محمد منير آل ياسين المحامي

منشورات الرسالة الجديدة ٩٦ صفحة ـ مطبعة الجامعة ـ بغداد

*

المعروف عن الاستاذ محمو منير آل ياسين المحامي انه دائب النشاط والانتاج في مجالات الفن والادب فمنذ ان الفت الحكومة امتياز مجلته الادبية الكبرى (الرسالة الجديدة) في سنة ١٩٥٣ والتي ساهم في تحريرها نخبة من احسن ادباء العروبة قال الجميع ان هذه الضربة ستكون كفيلة بالقضاء عليه ادبيا .. الا انهم فوجئوا بنشاطات جديدة له في ميادين اخرى غير ميدان الصحافة . فقد عاد الى الكتابة للاذاعة في كل مكان .. فالمعروف عنه انه كاتب مسرحي واذاعي من الطراز الاول ... يشهد له بذلك آلاف المستمعين الذين استمتعوا برواياته الاذاعية الشيقة الطريفة . واخذ المذياع يردد اسمه من جديد فيعيد للاذهان قصة كفاح شاب عصامي طموح وهب شبابه وروحه للفن ولخدمة الوطن .

وكان اخر عمل فني ادبي له هو اصداره مسرحية (صراع مع الظلام) التي نحن بصدد نقدها الآن. واول ما يلفت نظر القارىء هو عنوان المسرحية البليغ ، فقد اثار هذا العنوان تساؤل الكثيرين .. لاول وهلة .. وانا منهم فقد قلت لماذا لم يسمها صراع في الظلام ؟.. ولكني بعد ان قرات المسرحية واستوعبتها شهدت له بالتوفيق والابداع في اختيار هذا العنوان بالذات .

ان مسرحية (صراع مع الظلام) تعني الصراع مع الجهل والرجعية والظلم والانانية ... صراع الحق مع الباطل .. صراع النور مع الظلام ولعله استوحى العنوان من صراعه هو مع الظلام . فقد لقي في حياته الادبية والفنية الوانا شتى من المكافحة والمقاومة والحسد والعدوان ... ولكن هل رضخ هو لذلك ؟.. هل نكس راسه امام تلك الاعاصير ؟ هذا ما تجيبنا عنه هذه المسرحية الكبرى التي لم يفز المسرح العربي باجرا منها واصدق .

انها تصور كفاح المعلم في سبيل خلق الجيل الجديد ... المعلم العربي الذي تلقى على عاتقه مسؤوليات وطنية كبرى بالاضافة الى مسؤولية مكافحة الجهل ... مسؤوليات تهيئة الجيل الجديد للنهوض ببلاده من كبوتها وتحريرها من نير الذل والاستعباد .

لقد تمثلت هذه الشخصية الحية الرائعة في ـ خالد ـ ذلك الشاب الطموح الذي يصر على حرمان نفسه من كل مستقبل مرموق في سبيل ان يكون معلما ابتدائيا ... لانه كان يعتقد ان مجال خدمة الامة خدمة حقيقية هو تعليم الجيل الجديد في اولى مراحله الدراسية لانه يكون آنذاك لينا سهل التكييف وفق ما يرسمه له المعلم من توجيه وارشاد .

واروع من ذلك هو رفضه التعيين في العاصمة واصراره على التعيين في الريف حيث يكمن الجهل والفقر والمرض وحيث تتمثل افظع المآسي من حياتنا الاجتماعية المتطورة ..

وهناك في الريف تتكتل ضده قوى الرجعية كلها ... يغذيها رجال الاقطاع الذين يرون في كفاح خالد وافكاره خطرا يتهدد مصالحهم واطماعهم فيحاولون بكل ما لديهم من قوى ان يحوكوا الدسائس والمؤامرات للقضاء عليه الا ان ايمانه برسالته الانسانية الكبرى يمده بقوى روحية جبارة تعينه على الصمود في وجه الاعاصير ثابت العزم قوي الجنان ... حتى ينتصر في النهاية ذلك الانتصار العظيم .

لقد جمع المؤلف في مسرحيته بين الواقعية والمثالية . فقد رسم لنا فيها نموذجا كاملا للريف العراقي المثالي الكامل .. وهذا النموذج لم يتحقق الى الان بالرغم من الجهود التي تبذلها المؤسسات الاجتماعية المختصة برفع مستوى الارياف .. .

نعم لم تعد السن تعبأ باحد حتى ولا بكلسي معبودها القديم . كان هناك جوليان الذي وجدته اكثر فهما واعمق حرية من كلسي . ولكن نظرتها للناس قد تحولت تحولا خطيرا وما عاد للجنس البشري اطلاقا سلطان عليها.

ان البشر يملأون الطرقات والمنازل وتجدهم في كل ركن ، يسيرون ويتحدثون ويضحكون فيخيل اليك ، انهم يحيون الحياة كاملة غير منقوصه ولكنك تعرف اخيرا انهم جميعا يسيرون وهم اموات . انهم اموات .

وابتسمت بنشوة وارتياح ووقفت تنتظر مقدمهم فبدا عليهم التهيب والخوف .

ووددت ان تصيح بهم قائلة :

ـ ليس في ما يستوجب فزعكم ايها السادة . وانما الفزع في انفسكم، في ذواتكم الخاوية ، انكم تخشون الحياة وتجزعون من انتصار الزمان عليكم ، اما انا فلقد عبرت الظلمات وتركتها لكم . اني اعرف مصيري واعرف نفسي ، فانا في النور وانتم ما تزالون في الظلام .

انا اعيش ، وسوف اعيش ..

وامتدت احدى الايدي الى الصمام الذي يحرك الآتها ..

بغداد ترجمتها بتصرف **احسان الملائكة**

كما انه رمز الى المثالية الكاملة بشخصية خالد التي ذكرناها . والتي قلما نستطيع العثور على ما يماثلها بين شبابنا المثقف ... تقابلها شخصية الشيخ جهود ذلك الشيخ الاقطاعي الذي تركزت فيه كل الخسة والضعة والدناءة والجشع والذي كرس كل جهوده وقواه للقضاء على خالد ومشاريعه .

فهل يمكن الجمع بين المثالية والواقعية في الحياة ؟ هذا ما يعتقده المؤلف.. وهذا ما يرمي اليه في مسرحيته . انه يهتف بنا من بين سطور مسرحيته ان علينا ان نضع لنا في الحياة هدفا مثاليا يجب ان نسعى في حياتنا الواقعة الى بلوغه لكي نطور انفسنا وحياتنا ونتقدم بها الى الامام .

وهذا ما حققه خالد بطل مسرحيتنا ... فقد رسم لنفسه مثلا اعلى الا وهو خلق ريف مثالي كامل .. وسعى وجاهد لتحقيق هذا الحلم حتى وصل الى غايته في الفصل الرابع والاخير من المسرحية بعد ان وصلت الحوادث والانفعالات الناجمة عنها الى الذروة .

لقد اعجبني الحوار .. فقد كان سلسا نابضا بالحياة ... كما اعجبتني « الفقلات المسرحية » اي خاتمات الفصول .. فقد كانت موفقة الى حد كبير .

والمسرحية بعد هذا حافلة بصور اجتماعية واقعية شتى ... منها صورة للجيل القلق الذي يعاني ما يعاني من مرحلة التطور التي تمر بها . وتتمثل هذه الصورة في شخصية « سوسو » واخيها « فوفو » ابني عم خالد . ومنها صورة لرب العائلة الذي ينهمك في ملذاته وشهواته ويترك امر تربية ابنائه للاقدار .. فتؤدي هذه الروابط الاجتماعية المهلهلة للاسرة الى هدم كيانها وجعل افرادها مرضى نفوس او نزلاء سجون

وقد اعجبني بالاخص الفصل الرابع الذي يصل فيه الكفاح بين خالد ـ وتتمثل فيه قوى الخير والصلاح ـ وبين صيهود ـ وتتمثل فيه قوى الشر والفساد ـ الى القمة ... ففيه يبدو الطرفان خصمين في معركة انتخابية للنيابة عن تلك المنطقة من الريف. صيهود قوي بماله ونفوذه ومؤامراته.. وخالد قوي باصلاحاته ومحبة اهل الريف له .. وينتصر خالد ويفوز بالنيابة بينما تكون نهاية صيهود على يد احد الريفيين الذي يطلق عليه رصاصة مسدسه فيرديه قتيلا ... ولم يكتف الريفيون بهذا ... بل رجموا جثة صيهود بالحجارة وبصقوا عليها احتقارا في الوقت الذي كانت تتمالى فيه الهتافات بحياة خالد ..

هذا عرض عاجل لمسرحية رائعة الفها شاب ضحى بكل شيء في سبيل امته.

ارجو ان تنال من القارىء العربي التقدير والاهتمام الذين تستحقهما كما ارجو ان يواصل المحامي الفنان الاديب الاستاذ محمد منير آل ياسين صراعه مع الظلام حتى ينتصر .. وانا واثق من ان النصر ليس عنه ببعيد .

بغداد — سامي عبد الكريم

اطلبوا « الاداب »

في الدار البيضاء (مراكش)

من

مكتبة الزيات

شارع مناستير ١١٨ ـ ١١٦ ـ ١١٤

التعبير الموسيقي

تاليف الدكتور فؤاد زكريا

من سلسلة « الثقافة السيكولوجية » مكتبة مصر ـ ١٠٠ ص

*

انه كتاب ، بل كتيب ، يحاول فيه المؤلف ان يقدم لنا شرحا علميا مبسطا حول الفن الموسيقى ـ وما اشد حاجتنا اليوم في بدء عهد النهضة العربية الحديثة ، وفي ميدان الثقافة ، الى النظرة العلمية السليمة ازاء ما يحيط بنا من تراث الانسانية ومبتكراتها ، والى الابتعاد عن الاهواء والتعصب ومضاعفاتهما .

ونحن في الواقع نلمس مظاهر كثيرة تتضمن تأويلات عن الفن الموسيقي ، وتتبدى باشكال مختلفة ، فمن معجب مغرم ، لا يرقد له جفن ـ على حد زعمه ـ ان لم يستمع للموسيقى ، الى متبرم حائر لا يدري اي موقف يتخذه ازاءها ، الى هازيء ساخر يفخر بانه يجهل الموسيقى ، باعتبارها « مودة غربية » وهو شرقي ، وهو محافظ ، وبالتالي هو لا يلتقي ـ كما يتوهم ـ مع ثقافة الغرب . واذا نحن طلبنا من هذا او ذاك تبريرا معقولا لما يدعيه لكان لنا منه ما يشبه الجواب حينما يتذرع بالذوق الخاص . ويزداد تمسكا بهذه النمطية من الاجوبة على اعتبار ان قضايا الفن يتحكم فيها الذوق الى حد بعيد .

ولكن كيف نعي هذا الذوق ؟ وكيف نتعقل تذوقنا الفني ؟ وكيف يغدو استماعنا للموسيقى استماعا فنيا ؟ . هذا ما يجهد المؤلف في اظهاره .

*

الموسيقى فن تعبيري كبقية الفنون . الا ان لها صفات خاصة تتميز بها. فهي فن **مستقل** اولا بمعنى انه لا يمكن ترجمتها الى اية لغة اخرى ، كالشعر الذي يترجم للنثر مثلا . ولا يعني الاستقلال البعد عن الحياة . « انما يعني اختلاف صورتها النهائية عن صورة موضوعها ، اي ان العلاقة بينها وبين الموضوع ليست علاقة محاكاة او تمثيل او تصوير مباشر ، انما هي علاقة ايحاء تبعثه الموسيقى في النفس فتخلق فيها **شعورا عاما** يتلاءم مع طبيعة ذلك الموضوع وان لم يكن يحاكيه بطريق مباشر » ص ١٨ وتتصف الموسيقى ثانيا **بالعمومية** ، فهي لا تصور انفعالات وعواطف جزئية، بل تنطلق من هذه الجزئيات الى تصوير انفعالات واحاسيس عامة .

والموسيقى ثالثا **ذاتية** ، مرتبطة بالبعد الزماني ، غير الرسم مثلا المتمثل في البعد المكاني ، فاداؤها يتم خلال التعاقب الزماني ، وهذا التعاقب يدرك في ذاتية الانسان ، ومن الداخل .

ولقد كان الفيثاغوريون ، تأكيدا لهذه الحقيقة ، ينظرون الى العالم كعدد وكنغم فالعدد يعبر عن الكم ،والنغم عن الكيف (١)

وكذلك شوبنهور الذي اعتبر العالم ارادة لا يمكن الوصول اليها مباشرة ، بل بواسطة الموسيقى .. الخ ...

والموسيقى تستمد قوتها من اسلوب تأليفها ، هذا الاسلوب الذي يتم بواسطة اللغة الموسيقية ، واهم اركان هذه اللغة .

١ ـ الايقاع Rhythme وهو التنظيم الزمني لحركة اللحن ولا يضيف للحن شيئا جديدا ويتصل بحركة الجسم الطبيعية : التنفس (شهيق

(١) نحرص على عدم التعليق على هذا الراء عن الفيثاغورين لانه يحتاج لمزيد من الشرح لبيان العلاقة بين الاعداد ، وبين الموسيقى .

وزفير) الجوع والعطش ثم الليل والنهار ... الخ

٢ ـ اللحن Melody وهو ارتفاع الصوت وانخفاضه من حيث عدد الذبذبات .

٣ ـ التوافق الصوتي Harmony : (وهو غير معروف في الموسيقى الشرقية ، بينما اتخذه ديبوسي اساسا للتأليف الموسيقي)

انه ايجاد الانسجام بين صوتين او اكثر في وقت واحد . وتتعاون فيه الآلات المختلفة حتى لا يبقى في النفس فراغ للانتظار

٤ ـ القالب Form وينضمن الوحدة بين اجزاء القطعة كلها .

والآن كيف تتم عملية الموسيقى ؟!

١ ـ هناك المؤلف : فهو لا يمكن ان ينفصل عن الواقع اثناء تأليفه : لان الموسيقى فن مرتبط بحياة الانسان الواقعية وبصراعه خلال هذه الحياة ، فمن المحال ان نفهم اية فترة من الفترات الا اذا عرفنا كيف كان الناس يعيشون فيها » ص ١٦ ـ ١٧ . و « حساسية الفنان الصادق تجعله اكثر الناس تأثرا باحوال الحياة المحيطة به فتأتي موسيقاه صورة معبرة عن هذه الاحوال » ص ١٧ .

٢ ـ وهناك الناقل وقد تتدخل شخصيته في عملية الاداء قليلا او كثيرا

٣ ـ وهناك الذي يتلقى المعاني والاحاسيس التي سجلها الملحن ونقلها اليه القائم بالاداء . ص ٢٦

فالمستمع يحتاج الى الاستماع المركز ، والى عادة طويلة الزمن اذ : «يجب الا يكتفي بالسطح اللحني الظاهر للقطعة بل ينفذ الى التيارات الخلفية والاتجاهات الخفية فيها ، ويدرك الوحدة الكامنة وراء هذه الكثرة المتعددة من الاصوات » ص ٢٨

« فالاستماع الفني الكامل عمل ايجابي بكل معنى الكلمة يقتضي انتباها وتركيزا لا يكتسبان الا بعد مران طويل الامد ، ويقتضي تدخل الذهن الواعي الى جانب لاحساس لانفعالي اي انه عمل يشترك فيه العقل مع الحساسية ، ويقتضي بجانب التذوق الوجداني تفكيرا وتحليلا ومقارنة » ص ٥٨

وبهذا نبتعد بالسامع من ان « يلجأ الى التشبيهات الشعرية ليغلف بها اللحن » ص ٥٧

وهكذا نصل الى ان الموسيقى تحفل بالمعاني الحقيقية وليست اوهاما واحلاما « ان للموسيقى مجال المعاني ، فيه لا تهز الاعصاب فقط بل تيقظ العقل وتنبه الملكات الواعية وتكشف حقائق جديدة كانت النفس تجهلها من قبل . وهذه هي المهمة السامية للفن » ص ٣٠

الى هنا نرى ان الموسيقى تكسبنا مزيدا من المعرفة في هذه الحياة . وبهذا نبتعد عن تشبيهات الامزجة الشاعرية الرومانتيكية كأن يقول البعض : ان الحركة في السمفونية الخامسة لبيتهوفن تعني ضربات القدر ، وتلك تعني الاستسلام له .. الخ .. « ان هذه تشبيهات ادبية تسيء الى المتعة الجمالية اكثر مما تعين على تحقيقها» ص ٣٦ ونستطيع اخيرا ان نقول فيما يخص المعنى في الموسيقى :

« ان اقصى ما تستطيع الموسيقى ان تبعثه في النفس هو ان تضفي علينا معاني واحاسيس عامة، اي انها تخلق فينا جوا معينا يمكننا ان ندرك تياره العام ولكننا لا نستطيع ان نحدد تفصيلاته الجزئية ، ولن نستفيد شيئا لو استطعنا ذلك » ص ٣٦

واخيرا يحدد الكتاب صلة الموسيقى بالغناء ، ويرى تزاوجهما احيانا كما في الاوبرا ، ولكن لا يتم ذلك لاستكمال النقص في التعبير الموسيقي والاستعانة بكلمات الغناء الواضحة ، بل لمحض الاكتمال في العمل الفني .

اما القسم الاخر من الكتاب ـ فيبحث مشكلة التعبير في الموسيقى الشرقية . ويستهل البحث بان ليس لدينا في الشرق موسيقى بالمعنى الصحيح . فلقد انحصرت تجربتنا الموسيقية في الاغاني ، واصبحت غايتها احداث الطرب وليس المتعة الفنية الحقيقية.

اما الاغاني عندنا فقد قامت على ما تحمله الكلمات من رومانتيكية مفرطة يغلب عليها طابع الحزن والاسى . ويرجع هذا الى « ان الكفاح ضد الاضطهاد عندنا لم ينقطع ، غير ان تعاقب مظاهر الاستبداد واحدا بعد الآخر لم يترك للشعب فرصة في ممارسة تجربة الحرية والتغني بها في فنونه ، وانعكس ذلك على اوضح صورة ممكنة في موسيقانا الشعبية ، فاصبحت زاخرة بمعاني الذل والخنوع ، وانعكست المعاني على الالحان فاذا بها حزينة باكية لا تقبل على الحياة بقدر ما تندب حظها فيها » ص ٩٥ .

اما التأليف الموسيقي فيرجع ضعفه عندنا الى ان موسيقانا لحنية Mélodique وليست ذات توافق صوتي Harmonique . وقد سادت فيها صفتا التلاصق والتماثل فغدت هذه الالحان سلسلة متصلة من الاصوات تعلو وتنخفض كالبشارف مثلا التي تمثل ذلك احسن تمثيل . « وهذا يؤدي الى فقدان التسعور بالجدة في الالحان المستحدثة ، والى صبغ هذه الالحان بصبغة التشابه والتجانس والى انعدام عنصر التنوع فيها » ص ٧٠ .

ومن عناصر تأخر موسيقانا قيامها على الايقاع Rhythme ، فان الايقاع عنصر ضعف واضح ، انه اشبه بالخطيب الذي يقول للناس انتبهوا سوف اقول قولا مهما ، بينما في الحقيقة عليه ان يدع السامع يكتشف ذلك . بينما الايقاع في الموسيقى الغربية اندمج في تيار اللحن مع بقية عناصر القطعة .

وفقدان التوافق الصوتي Harmony في موسيقانا الشرقية يجعلها سطحية بينما هو في الموسيقى الغربية مصدر العمق ، اذ بفضله تتخذ الموسيقى عند السامع الوانا متجددة على الدوام . ان موسيقانا ذات تيار واحد وهو ساذج بحد ذاته فتكرار الاستماع اليه يؤدي الى الملل .

اما القالب Form فهو عندنا دوري ـ كما في غناء المواويل ـ وتكون العودة فيه دائما الى القرار .

اما **الشعب المستمع** فهو كتلة جماهيرية تعيش في جو تشنجي صاخب ولذا صار الهدف من الاستماع هو البحث عن النشوة العاجلة والطرب المستمر في الالحان دون بذل اي جهد في **الفهم والتعمق .**

ويتوهم البعض ان كثرة السلالم الموسيقية عندنا دليل على جودتها مع ان الغربيين جهدوا كثيرا لضغطها الى سلمين فقط .

وبعد ، هذا قليل من كثير من ملامح هذا الكتيب ، بل الكتاب ، وهذه الملامح تجعلنا اميل الى البحث العلمي في قضايا فن الموسيقى لنقف منها موقفا واعيا غير تلك المواقف المائعة التي يتخبط فيها بعض متقفينا فحدود هذا الفن اضحت واضحة لا مجال فيها للتعبيرات الشعرية ، ولا للتذرع بما يسمى ـ الذوق الخاص ـ والاذن ... الخ انه كتاب جدير بالقراءة .

اسماعيل حمود

الجامعة السورية ـ كلية التربية